التصوف بين التجني والتمني

نعيش في زمان حبس الانهماك المادي فيه استعدادات الروح، وحلَّت الرغبات الغريزية فيه محل العاطفة الصادقة، وكادت اللطائف الروحية أن تكون فيه مجرد كلام في الأفواه، أو طقوس في الحركات واللباس.

ولكن.. مهما استغرقنا في مثلِ هذه البيئة الكثيفة فسوف نبقى نرصدُ في جذورنا بقية حياة، وفي أغصاننا بقايا عُروقِ حيويةٍ.

وسوف نبقى نصغي إلى أصواتِ الينابيعِ المحبوسةِ تحت قشورنا الترابية منتظرةً مَن يخرجها من محبِسها ليعيد إليها نبضَ الحياة من جديد.

إننا ونحنُ ننشد السلام في العالم، ونبحث عن الجمال فوق كوكبنا الأرضي منطلقين في حركتنا من حقائق التصوف، نقف غالبا في الوسط، وعلى جانبينا فريقان:

الفريق الأول يدّعي التصوف ويتوهم أنه يعيش أحواله، وما حقيقة أمره إلا أنه يتمنّاه! فأسميته من هذا الاعتبار **(فريقَ التمني)** والفرقُ كبيرٌ بين التصوف وتمنيه.

أما الفريق الثاني فهو صنفٌ مارس التصوف داخلَ الصومعة، بعيدا عن الواقع المادِّي الظامئ الذي ينتظرُ عطاءَه الروحي، يشبهُ الذي يجلسُ خارج المدينة الظامئة في الينابيع العذبة، فيُحصِّنُ تلك الينابيعَ ويبني عليها أرفع الجدران، ويشرب ويرتوي وأبناء مدينته في أشدِّ الحاجةِ إلى الماء.

إنه في تلك الحالة يعيش أنانية الارتواء، لماذا لا ينقل إلى العطاش الماء وهو يقدرُ على ذلك؟

إنه يشبهُ رجلَ الإطفاء الذي يحبسُ الماء في مركبته و أمامه الحريق ملتهب!

ومن هذا الاعتبار أسميته **(فريقَ التجني)** وفرديةُ الغنيِّ في زمن الفقر هي بنظري عينُ التجني، وانزوائيةُ الشبعان في زمن المجاعةِ هي من أكبرِ آثام التجني ومظاهره.

كان لا بد من هذه المقدمة قبل الكلام على موضوع الندوة وهدفها الدائر حول (تحقيق السلام) فمما لا شك فيه أنَّ تحقيق السلام يحتاج إلى حركة وحياة، فالحركة مفقودة في فريق التجني، والحياة مفقودة في فريق التمني، والتصوف الذي هو مقدمة السلام هو (الحركة الحية) أو (الحياة المتحركة).

وقد قال أهل المعرفة :

لئن كان قومٌ بالزوايا تقيدوا فإنا نرى كل الوجود زواياكم

وأجاب أحدهم[1] حين سئل عن معنى الخلوة فقال: (أن تدخل الزحام وأن لا يزاحموك في سرك)

ومن هذه الرؤية يتحرك الصوفي في الكون وهو يراه زاويةً صوفيةً؛كلٌّ مَنْ فيها ذاكرٌ للحقِّ، ومسبِّحٌ بحمده، فأفلاكهُ في مشهدِ الحقيقةِ تدورُ في حلقةِ الذكرِ هائمةً، وكواكبهُ وشموسهُ ونجومهُ تتألقُ بأنوار الهباتِ والعطايا الربانية والمواهبِ الصمدانية، وهي تقولُ لشيخها وإمامها الإنسان، نحنُ مِن ورائك في حلقة الذكر هذه نسير، وخلفك في منازل المحبة نهيم.

فمن تنبه من البشرِ إلى منـــزلته ومكانتهِ تناغم مع هذه الحلقة الشهوديةِ وانسجم مع ذِكرها الدائر القائم الهائم، ومن غفل عن مكانته وموقعه في دائرة الشهود يتراجعُ عن مكانه في حلقة الذكر الكونية، ويبحثُ عن موقعٍ له بينَ البهائمِ الآكلة الراتعة، أو كهفٍ له بين الضباعِ والسباع.

كان الصوفي جلالُ الدين الرومي يحكي قصةَ عيسى عليه السلام الثمِلِ بالحق، وقصةَ حمارِ عيسى الثمل بالشعير،[2] وكيف مضى عيسى ابن مريم إلى السماء، وكيف بقي حماره في الأسفل..

وكان الروميُّ يرى البشرَ صنفين: صنف بحثَ عن مكانٍ له خلف عيسى، وصنف بحث عن مكانٍ له خلف حماره، وكان يرى جبريلَ راقصًا في عشق جمال الحق، ويبصر العفريت راقصًا في عشق شيطانةٍ[3].

ومن موقعِ الإنسانِ الشيخِ الإمامِ في حلقة الذكرِ الكونيةِ يكون الإنسانُ راعيا للكونِ حافظا له من كل اضطراب، ومن موقعه هذا يحزنُ حُزنا شديدا على الذينَ تركوا موقعهم الإنسانيَّ إلى مراتعِ البهائمِ أو غاباتِ السباع، ويُدركُ أنَّ العالَمَ البشريَّ سوف يتحولُ إلى غابةٍ يكثُرُ فيها المفتَرِسُ والمفتَرَس حين يكثُرُ التاركون لمنازلهم الإنسانية.

ولكنْ ماذا يفعلُ الصوفيُّ الصادقُ في مثلِ هذا الحال؟

إنه لو ترك الغابة المضطربةَ إلى صومعته سيكون ملتحقا بالفريقِ المتجني المتمصوفِ (لا الصوفي).

ولو اشتركَ بسلوكه في فوضى البهائم والسباع سيكون ملتحقا بالفريقِ المتمني المتمصوفِ أيضًا (لا الصوفي).

فما هو الاختيار إذًا؟

أما سلوكهُ فمُستَمِدٌّ من توجيهِ معشوقهِ الأوحد الذي (جُعِلَتِ الدنيا والآخرة نِثاراً على جماله[4]) الذي قال له: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) { 112 } هود فاستقامَ غيرَ آبهٍ بترغيبِ البهائمِ ولا ترهيب السباع.

وأما حالهُ فمُستَمِدٌّ من كفاية كافيه الأمجد الذي له ملك السماوات والأرض، الذي قال له: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) { 36 } الزمر

وأما خُلُقهُ فمُستَمِدٌّ من سيِّدٍ كريمٍ كانتْ مشقَّةُ البشرِ تَعزُّ عليه، سماه عيسى (أحمد) وسماه الله في القرآن (محمدا) قد وصفه ربه فقال: (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) { 128 } التوبة وكان مُرْسَلاً حريصًا على سلامة الإنسانية وسلامها قد قال فيه مُرسله: (حَرِيصٌ عَلَيْكُم) { 128 } التوبة

وبهذه الأركان الثلاثة (السلوك، والحال، والخُلُق) يستطيعُ الصوفيُّ التأثيرَ في البشرية، وبدلا من تخريبها يُعَمِّرُ بُنيانَ هُويتها.

إنه بهذه الأركان الثلاثة يصير مشفقا على القاتل أكثر من إشفاقه على القتيل، ويصبحُ راحما لأشباه البهائم والسباع أكثر من رحمته بالذين يتأذَّونَ بالبهائم والسباع.

وتكثيرُ النوعِ المتمثل بهذه الأركان يعني تكثيرَ النوعِ الإنساني، ويعني تعميم السلامة والسلام في كوكب الأرض.

كما أنَّ هذا لا يعني غياب السلوك الحافظِ للبشر الواقي له من أشباه السباع، وأعني بذلك جهادَ الصوفيِّ وقتاله للمعتدين الراغبين في استئصال الإنسانية، فوقاية البشرِ بصدِّ العدوانِ عليهم هو جزءٌ مكملٌ لمهمة الصوفي، فمطلوبٌ لحماية الإنسانية حفظُ مكانتها وحفظ مكانها، وقد شارك الإمام الشاذلي في معركة المنصورة أيامَ الظاهرِ بيبرس في مقابلة ملكِ فِرَنسا لويس التاسع [5]، فكما كانَ الشاذلي يبني الإنسان كان يحميه في الوقت نفسه من أعداء الإنسان.

وشارك السنوسيون في مقارعة المحتلِّ المعتدي ، وشارك الصوفي الجزائري الأميرُ عبدُ القادر في جهادِ المستعمر ودفع البغاةِ اللابسين صورة البشر فوق أجسادٍ ذئبية سَبُعية.

إنني أعتقدُ أنَّ نجاحنا في مثل هذه الندوة يتحققُ إذا استطعنا إيجاد الآلياتِ التي تنشرُ النوعَ الإنسانيَّ المتميز (بالسلوك، والخُلُق، والحال) فالتحدي الذي ينتظر الصوفي الصادق هو كيفية بناء السلوك والخلق والحال في زمن العولمة المعاصرة التي تمزِّقُ بفوضويتها أثوابَ الأخلاق وتُدمِّرُ بطغيانها موازين السلوك وتعيقُ بكثرة أزماتها استقرارَ القلوب.

وحين يُفتَحُ علينا في آلياتِ هذا البناء، فإنَّ ذلك يعني قُربَ البشارة، وصحة الإشارة وما ذلك على الله بعزيز.

د. محمود أبو الهدى الحسيني